مجلة مستقبل التربية العربية المجلد ٣١ / العدد ١٤٥ / أكتوبر ٢٠٢٤
Future Of Arab Education VOL. 31, NO. 145, Oct. 2024
https://fae.journals.ekb.eg/ DOI: http://doi.org/10.21608/FAE.2024.419020

المعضلة الأخلاقية فى المسألة البحثية: قضية للمناقشة

Ethical Dilemma in Research Question: An Issue for Discussion

أ.د. ضياء الدين زاهر*

Prof. Diaa Al-Din Zaher*

مقدمة:

التراث العريض للتربية كان يعمل لصالح الكفاية وتأكيد معاييرها على حساب الأطراف والمعايير الأخرى (خاصة البحث العلمى)

وأضفى "دعاة الكفاية" القدسية عليها، فالكفاءة هى التى تحقق نتائج أكبر بمجهود أقل فى زمن أقل وبتكلفة أقل، وهى قادرة على أن تأتى بالخير وتحل المشكلات وغيرها بل أن أحد دعاتها يتحدث عن "إنجيل الكفاءة" ولكنها فى حقيقة الأمر لا تحل المشكلات الأكبر.

ونرى أن: "الكفاءة إذا كانت معيارًا" فإن الأخلاق تكون معيارًا، بل أن المعيار الأكثر جدوى هو "المعيار المزدوج" (الكفاءة والأخلاق) وذلك لتحقيق الأهداف المتعددة للتربية التى تتسم بمراعاة مصالح الأطراف المتعددة.

ومن التبسيط أن توضع المسائل الأخلاقية كلها فى (أبيض) أخلاقى (أسود) لا أخلاقى لأن الأخلاق فى التربية.

* أستاذ التخطيط الاستراتيجي والدراسات المستقبلية كلية التربية – جامعة عين شمس، ورئيس تحرير مجلة مستقبل التربية العربية.

*Professor of Strategic Planning and Future Studies, Faculty of Education, Ain Shams University, and Editor-in-Chief of the Journal of Arab Education Future.

أعقد من ذلك بكثير فى ظل التنوع الكبير لهذه الخيارات من جهة، وتصارع المصالح للأطراف من جهة أخرى.

فإذا كانت "الأمانة" و"الالتزام بالقانون" و"الصدق" كلها "مبادئ أخلاقية" و"فضائل واضحة" وجلية، فإن "الرشوة" و"الاختلاس" و"الكذب" رذائل أخلاقية لاشك فى ذلك.

وبين الاثنين "منطقة رمادية" مليئة بالحالات الغامضة التى لا يمكن الحكم عليها بسهولة. والتى تتيح للبعض "المناورة" فيها دون أن تكون هناك فرصة للحكم عليها بأن موقفهم الأخلاقى خطأ.

وقد تصاعدت فى الآونة الأخيرة. "موجة عالية" تركز على "أخلاقيات العلم" و"المسئولية الأخلاقية للعلماء".

وقد برر هذه الموجة بسبب: تزايد الفضائح الأخلاقية .. واتساع الانتقادات للتربية ومعاييرها المتمثلة بالكفاءة وحدها .. إلى حد إهمال مسئوليتها الاجتماعية والأخلاقية.

وصار من الحكمة أن تقابل رؤية التربية القائمة على الكفاءة الكمية .. برؤية أخرى قائمة على أخلاقيات البحث العلمى التربوى.

ولا ننسى علم التربية على مبعدة من بقية العلوم الاجتماعية .. بل واقل يقينًا من مكانته العلمية (كما يقول برنال).

ومثاليًا، يفترض أن يغطى هذا العلم كل العمليات الشرطية والمشروطة (من الميلاد إلى الموت) التى تستطيع الكائنات الإنسانية من خلالها "التكيف" مع المجتمع الذى نعيش فيه، و"الوسائل" التى يتعلمون عن طريقها كيف يجعلون هذا المجتمع أفضل ما يمكنهم أو كيف يغيرونه".

فالحقيقة أن علم التربية – من حيث هو دراسة – قد نشأ متأخرًا فى زماننا، نتيجة المشكلات العلمية فى نظام المدارس .. وحاول بوسائل عاجزة كل العجز – أن يتلاءم مع الاحتياجات التعليمية المتزايدة بسرعة كبيرة.

لذا، لا نستطيع إلا أن ندهش من "الفوضى" التى لا حدود لها فى هذا الميدان .. حيث ظهرت رذائل أخلاقية هددت روح العلم التى هى أخلاقية بالأساس.

لذا، احترام الروح العلمية بما تنطوى عليه من أخلاقيات للبحث التربوى فى نفوس الباحثين يزودهم بالثقة وتحفزهم على القيام الجاد والدثيث بالعمل البحثى .. وعلى توسيع وتعميق معرفتهم بهذا الميدان كما يفتح الأبواب ويقدم دليلاً للسير فى ممرات العمل البحثى التربوى.

إذن فليس ترفًا أبدًا أن نشغل أنفسنا بالمعضلة الأخلاقية تدبرًا وتأملاً وتعمقًا فى مشكلات المسألة البحثية التربوية.

ولنتساءل كيف يربى الباحث العلمى التربوى عندنا .. على نحو يوسع من نظرته، ويعتدل فى ميزانه، فيتقبل المغاير ويقدر المعارض، ويتسامح مع المناقض لما يحسبه هو أصدق معنى للعلم .. وأقوم منهج للبحث.

ولا ننسى كيف ساد زمن اعتمدنا فيه على "الخبرة الذاتية" و"القيم الموروثة" فى إجراء البحوث والعلم.

ثم جاءت "موجة ثانية" تركز على "الكفاءة والجودة" كمركز للاهتمام الوحيد والربحية والبراجماتية.

المقصود بالمسئولية الأخلاقية:

ماذا نعنى بالمسئولية الأخلاقية وكيف تصبح مرادفًا "للروح العلمية"، الروح العلمية قوامها صفات خارجة عن نطاق العلم، فالباحث إنسان لديه "الشجاعة"،

ISSN:1687-3572 (Print) - ISSN:2537-0642 (ONLINE)

و"الأمانة العلمية" لأقصى حدودها، وهو "قاض" لا يتأتى فيه شك، وهو شاعر يستشعر الجمال العقلى.

تأسيسا على ذلك فإن المسئولية الأخلاقية تعنى فى التحليل النهائى:

"الالتزام بقواعد السلوك المكتوبة والمتفاهم عليها، داخل الجماعة أو المجتمع العلمى الذى يكتسب الشخص العضوية فيه"

مكوناتها:

١- حب الاستطلاع والدهشة

٢- النزاهة.

٣- روح النقد.

٤- فالعلم وليد الدهشة وحب الاستطلاع.

٥- الأمانة العلمية.:

- الثقة.
- العدالة.
- المسئولية.

٦- الخيال.

دواعى عدم التمسك بالوازع الأخلاقى:

(١) البيئة العلمية فهى غالبا لا تقدس الأخلاقيات والفضائل بما فيه الكفاية: فهى تعزز فقط آليات التفوق وخلق الذكاء وليس بآليات تعزيز الأخلاقيات والإنسان الأخلاقى.

(٢) ضغوط العمل: ففى ظل التنافسية الشديدة القائمة اليوم صار الصراع من أجل الحفاظ على من يبتكر ويصمم وينتج أولاً .. بعيدًا عن الانشغال بالنواحى الأخلاقية وتخلى العديد من البحثين عن العديد من الضوابط البحثية .. وعن التعاون العلمى.

(٣) كثرة العاملين فى المجال: كان يفترض أن هذا العامل كفيل بتوفير عيون فاحصة وأخلاقية للمتابعة والشفافية، على أن الواقع عكس ذلك .. فنرى شيوع ظواهر الفساد الأخلاقى، أتاح للعديد بالهروب من الملاحقة الأخلاقية والشفافية فضعف وجود رأى عام متيقظ وناقد..كما ظهر الاستسهال فى التعامل مع القضايا العلمية واختيارها.

(٤) مشكلة الانقياد: فالباحثين فى غمرة انشغالهم أصبحوا يخضعون لمنطق داخلى يدفعهم للسير فى الطريق إلى آخره .. مهما كانت النتائج وهى مشكلة الانقياد فالباحثون حتى من كانوا حسنى النية يمكن أن ينقادوا غلى الضرر.

(٥) نوعية الباحثين أنفسهم: فقد ظهرت سلالة جديدة من الباحثين "ذوى النزعات البراجماتية" الذين لا يعبأون بالمقدسات العلمية وما يتصل بها من سلوكيات أخلاقية حميدة بالقدر الكافى وساعدهم على ذلك أيضا غياب تقاليد ديمقراطية تضمن ظهور النقد والرد على النقد.

هل كل من يمتلك ميثاقًا أخلاقيًا نحكم عليه بأنه أخلاقى؟

العديد من التخصصات لديها مدونات أخلاقية مدونة، ومع ذلك لا يتم الالتزام بها، والأمثلة على ذلك كثيرة.

- فبالنسبة للمؤسسات، جامعة M.I.T
- العالم البريطانى "سيرل بيرل"

ISSN:1687-3572 (Print) - ISSN:2537-0642 (ONLINE)

- شركة نستله السويسرية.
- شركة جنرال موتورز

الإشراف العلمى:

يزعجنا أن نؤكد هنا أن هناك انفصالاً مشئومًا بين الباحث والمشرفين، فبعد التسجيل ينقطع الاتصال بينهما، ويبدأ الطالب فى التسرب ثم يعود مرة أخرى مراوغًا ومهددًا بأنه تأخر فى الإنجاز وهكذا دواليك!.

ولابد أن نؤكد أن العلم كظاهرة ليس محصورًا فى المرء وحده وإنما باعتباره داخل جماعة علمية مترابطة وفى إطار "التعاون الطوعى" بين الجميع. وعلى الباحث المبتدئ أن يستفيد من "زملائه" الباحثين ومن "نصائح أستاذه المشرف".

فيجب الباحث إذن أن يعلم أن عمله العلمى يتوقف على أعمال من "سبقوه" وأعمال "زملائه"، وأنه لا يمكن أن يؤتى عمله ثماره إلا بأعمال من "يأتون بعده".

ومن زاوية أخرى جمود الأساتذة وعدم قبولهم تواصل طلابهم مع أساتذة آخرين مبدعين فى تخصصات وأماكن أخرى، وعدم قدرة البعض منهم على الإحاطة بموضوع الباحث فى إطار موسوعى.

تصورات لمعالجة المعضلة الأخلاقية:

لما كانت الأخلاقيات مسألة جماعية وليست شخصية فحسب فيجب أن تصير وفق ميثاق أو مدونة لأخلاقيات البحث التربوى. وأن يتم التدقيق فى اختيار المشرفين وكذلك اختيار الباحثين لأن البعض منهم معروف بإيجاد مسوغات للخداع والإكراه وخيانة الثقة إلى غير ذلك من دعم الأمانة.

وفى هذا السياق فإن تمت أساليب وحلول لمواجهة هذه المظاهر. وهى على مستويين:

المستوى الأول: وقائى وفيه من الضرورى:

(١) صياغة "مدونة أخلاقيات للبحث العلمى" لتكون مرشدًا لسلوك الباحثين والمشرفين.

(٢) التركيز على النزاهة فى اختيار القيادات العلمية والمشرفين وفق المدونات الأخلاقية.

(٣) تدعيم الطابع المهنى فى التخصص التربوى.

(٤) التركيز على الشروط الأخلاقية فى الاختيار والتعيين والترقيات.

المستوى الثانى: العلاجى:

(١) اعتماد التشريعات والقوانين الصارمة فى مواجهة الفساد.

(٢) تعزيز دور وسائل الإعلام فى الكشف والتشهير بالفساد والفاسدين.

(٣) توجيه الإنذارات وإعطاء المهل الزمنية من أجل إصلاح الأوضاع.

وعليه، تتحدد هذه التصورات فيما يلى:

(١) التأكيد على مجموعة المعايير والمدونات الأخلاقية والقواعد المهنية الكثيرة الصادرة فى مجال العمل التربوى، ومنها ميثاق للمشتغلين بهذا العمل.

(٢) الدعوة إلى إصدار "مدونة أخلاقية" للعاملين فى التربية والفروع المرتبطة بها .. لتكون مصدرًا للمعايير الأخلاقية التى يجب مراعاتها فى مهنهم ووظائفهم ومشروعاتهم فى مواجهة المعايير الأخرى المفروضة عليهم من أية جهة أخرى.

(٣) إخضاع المجالات الأساسية للبحوث العلمية لمراقبة دقيقة وإخضاعها لقدر من المراقبة المحددة قانونًا لضمان الالتزام بالقواعد والمعايير الضرورية للحد من الاندفاع المضر.

ISSN:1687-3572 (Print) - ISSN:2537-0642 (ONLINE)

(٤) تضمين لجان للأخلاقيات التربوية لدى الفعاليات (المؤتمرات والندوات).

(٥) التأكيد على مسئولية المؤسسات التربوية فى توجيه الباحثين العاملين لديهم وفق مدونة أخلاقيات التربية .. وأن تكون التربية جزءًا فعالاً من عملية التوجيه والتقييم والكبح الأخلاقى للاتجاهات السلبية فى المشروعات التربوية.

فوائد المدونة:

(١) تسهم فى تطوير البحث العلمى التربوى خاصة إذا ارتبطت بخريطة البحوث.

(٢) إيجاد تجانس وتوافق أخلاقى فى البحث التربوى فى كافة المستويات التنظيمية بما يمكن من مواجهة المآزق الأخلاقية، وحالات عدم التأكيد الأخلاقى التى تعانى منها الأرقام الأكاديمية.

وعليه فإن شبكة الأمان الوحيدة للبحث العلمى فى تقديرنا، ليست فقط فى الاتفاق على مسودة للأخلاق التربوية، ولكن الأهم الشروع فى تنفيذها.

الخاتمة:

كيفية التحول من إطار الأمنيات والحلم إلى ترجمة حقيقية مخططة لهذه الأحلام. فى إطار:

(١) تشكيل لجان مسئولة عن ذلك.

(٢) المتابعة لما يتم الاتفاق عليها.

(٣) وضع إطار أخلاقى يقوم المساءلة والمتابعة.

(٤) تدعيم النشر العلمى ووضع ميثاق له نشارك فيه جميعًا.

(٥) البدء فى وضع "خريطة بحثية" مشترك ووضع ملامح لمشروع جماعى .. تكون نتائجه إلى جانب الجوانب العلمية.